حلف الناتو

اظهرت القمة الاخيرة لمنظمة حلف شمال الاطلسي، الناتو، مدى التغيرات الحاصلة في العالم منذ الحادي عشر من ايلول/سبتمبر 2001، والاجتماع المنعقد للمرة الاولى في احد بلدان حلف فرصوفيا السابق تميز بقرار غير مسبوق يقضي بضم جمهوريات سوفياتية سابقة الى صفوف الحلف. وكان أيضاً مناسبة لتعيد الولايات المتحدة تأكيد زعامتها على شركائها الاوروبيين بالرغم من التجاذبات التي حصلت بينها وبين كل من المانيا وفرنسا حول المسألة العراقية.
كان التعارض لافتا بين قمة براغ في 21 و22 تشرين الثاني/نوفمبر 2002 وقمة العيد الخمسين لتأسيس حلف الناتو التي التأمت في واشنطن يومي 23 و24 نيسان/ابريل من العام 1999. فقمة واشنطن عقدت في وقت بدت فيه قوات الاطلسي تغرق حول كوسوفو في وحول اول حرب متوسطة الحجم يقودها الحلف منذ تأسيسه. وكان التوتر في اوجه بين الحلف وروسيا منذ انهيار الاتحاد السوفياتي مما اثار جدلا داخل الطبقة السياسية الاميركية في شأن سياسة الغرب حيال موسكو.
وكان تفاقم الجدل بعد قرار قمة مدريد في تموز/يوليو 1997 الموافقة على مبدأ ضم بولونيا والمجر وتشيكيا الى الحلف، فبعد التصلب الروسي في قضية كوسوفو، تأكدت تحذيرات هؤلاء الذين نبهوا الى أخطار الاجراءات التي ارتابت منها موسكو واعتبرتها نوعا من الاقصاء الموجه ضدها. وانتهى الامر الى عدم اطلاق قمة واشنطن آلية لضم بلدان جديدة بعد الدول الثلاث الاعضاء في حلف فرصوفيا السابق وذلك بالرغم من المطالبة الملحة لشخصيات مناهضة لروسيا من امثال السيد زبيغنيو بريجنسكي.
مدى تاثير حلف اعتداءات سبتمبر على مؤسسين حلف الناتو

غيرت اعتداءات 11 ايلول/سبتمبر المعطيات في جانبين جوهريين. فهي وفرت اولا لادارة بوش الجديدة شرعية ايديولوجية غير متوقعة من اجل تجديد سياسة التدخل المسلح غير المضبوط والذي كانت الولايات المتحدة قد توقفت عن ممارسته منذ حرب فيتنام. وقد وجد الفريق الحاكم في واشنطن في "الحرب ضد الارهاب" واجهة ايديولوجية تؤمّن االصدقية لحملته العسكرية الواسعة والطويلة المدى بعد انتهاء الحرب الباردة على غرار ما كانت عليه "الحرب ضد الشيوعية" بين 1945 والهزيمة في فيتنام.
من جهة اخرى كان الحادي عشر من ايلول/سبتمبر مناسبة لانعطاف سياسي قام به السيد فلاديمير بوتين على خلفية تورط الجيش الروسي في الشيشان. تراجع حاكم الكرملين امام ضغوط واشنطن المتصاعدة بعد صدمة اعتداءات ايلول/سبتمبر واختار مرغما لا بطلا الاستفادة على الاقل من موقفه المتعاون وتخليه عن احتواء الموجة الهجومية الاميركية التي اطلقتها الاعتداءات (١).
وكانت ابلغ نتائج هذين التطورين المتداخلين اجتياز الولايات المتحدة الخط الاحمر الذي رسمته روسيا في عهد السيد بوريس يلتسين في مواجهة التوسع الاميركي على حساب دائرة النفوذ الروسي. والخط الاحمر هذا يتطابق مع حدود الاتحاد السوفياتي السابق وكانت موسكو في التسعينات تنذر بأن اقامة اي وجود عسكري غربي داخل هذه الحدود هو بمثابة اعتداء عليها. ها هو الوجود العسكري قد حصل اليوم. انتهزت الولايات المتحدة فرصة الحرب في افغانستان لتقيم قواعد عسكرية من الواضح انها على المدى الطويل في اوزبكستان وقرغيزستان كما حصلت على تسهيلات عسكرية في طاجيكستان وقازاقستان كما مدت اذرعتها العسكرية حتى جورجيا.
ان وجود القوات العسكرية الاميركية في قلب الاتحاد السوفياتي السابق نزع الاهمية عن القرار الذي اتخذه حلف الاطلسي في قمة براغ بضم جمهوريات البلطيق وثلاث دول اعضاء في حلف فرصوفيا البائد اي رومانيا وبلغاريا وسلوفاكيا اضافة الى سلوفينيا العضو السابق في الاتحاد اليوغوسلافي. بعدما كان مدار جدل في الامس لم يثر هذا القرار اي ردة فعل حقيقية اذا ما تجاوزنا خطب المناسبات (٢). فالكرة الارضية باتت ضمن شبكة من القواعد والاحلاف التي تسيطر عليها الولايات المتحدة. من جهة اخرى ان المصادفة غير البريئة في الانتسابات المبرمجة لبلدان "في وضع انتقالي" قبل دخولها الى الناتو والاتحاد الاوروبي، تزيد كثيرا من هيمنة الولايات المتحدة على المنظمة الاولى وتوسع تأثيرها على الثانية.
في الواقع ان الدول السبع المذكورة سوف تصبح اعضاء في حلف شمال الاطلسي عام 2004 بعد انتهاء الدول الأعضاء من اجراءات المصادقات. وفي العام نفسه تصبح خمس من بينها اعضاء في الاتحاد الاوروبي اضافة الى ثلاث دول من اوروبا الوسطى سبقوها في الانتساب الى الاطلسي بينما تنضم كل من رومانيا وبلغاريا الى الاتحاد الاوروبي في العام 2007. هكذا لا يبقى سوى ست دول اعضاء في الاتحاد الاوروبي (النمسا وقبرص وفنلندا وايرلندا ومالطا وأسوج) غير منتسبة الى الناتو الا اذا اقدمت على خطوة الالتحاق بالدول الأخرى داخل الحلف.
وكما اشارت صحيفة "واشنطن بوست"، فإن الدول المنتسبة الثلاث عام 1997 "اظهرت حماسة خصوصا لجهة ارضاء واشنطن التي دعمت عضويتها. كما ان الدول السبع الجديدة ستكون مناصرة متشددة للحلف وداعمة للولايات المتحدة بحسب بعض الرسميين في الناتو وممثلين لهذه الدول. ويقول احد المسؤولين الاميركيين ان التوازن داخل الحلف يمكن ان يتطور في اتجاه الخط الاكثر حزما و الملتصق اكثر بسياسة الولايات المتحدة (٣)". كذلك سيشهد الاتحاد الاوروبي تطورا مماثلا على الارجح ومن البديهي ان يتعزز هذا التوجه العام مع انتساب تركيا المدعومة بقوة من واشنطن (٤). وفي هذا المجال يبدو الاختلاف كبيرا مع العام 1999.
( كان يمكن تفسير القرارات الآيلة الى تشكيل قوة تدخل سريع تابعة للاتحاد الاوروبي (اتخذت في سياق حملة كوسوفو خلال قمتي الاتحاد في كولونيا، حزيران/يونيو 1999، وهلسنكي، كانون الاول/ديسمبر 1999) على انها اشارة الى رغبة في التحرر من التبعية الاميركية، وذلك بالرغم من النفي الحاسم في هذا الخصوص الذي اعلنته الحكومات الاوروبية مدعية على العكس ان هذه القوة وجدت لتؤمن التكامل مع حلف شمال الاطلسي. صحيح ان القوة الاوروبية المؤلفة من 60 الف جندي ليست معدة سوى للمهمات المعروفة باسم "بترسبرغ” ٥) ـ تفادي النزاعات وحفظ السلام والمهمات الانسانية ـ وهي تحديدا من النوع الذي يرغب البيت الابيض في تركه لحلفائه وعدم اشراك القوات الاميركية في تنفيذها(6).
هذا هو الفارق الرئيسي بين قوة التدخل السريع الاوروبية وقوة الرد الاطلسية التي نجحت الولايات المتحدة في اقرار تشكيلها خلال قمة براغ الاخيرة: فإذا كانت القوة الاطلسية وهي في مجملها اوروبية لا تمثل سوى ثلث عديد قوة التدخل السريع الاوروبية فلأن تعريف مهماتها غير محدود. فيأتي تشكيل قوة الرد الاطلسية في صلب سياق التحول المزدوج الذي طرأ على الناتو منذ قمة روما عام 1991، فالحلف انتقل من كونه دفاعيا الى منظمة "أمنية" اي متمتعة بحق التدخل ولم يعد واردا احترام دائرة تدخلها الاساسية والتي تحددها حصرا المادة الرابعة من معاهدة 1949 باعتبار انها تشمل البلدان الاعضاء والاراضي الواقعة تحت ادارتها او سيطرة قواتها "من شمال الاطلسي الى شمال مدار السرطان”. فحلف الاطلسي ما عاد يلتزم حدودا جغرافية كما ظهر ذلك خلال تدخله في البلقان.

مقابل دائرة التدخل المحدودة (أربعة آلاف كيلومتر حول بروكسل) التي تغطي بها قوة التدخل السريع اوروبا ومحيطها الجيوسياسي، لا تضع قوة الرد الاطلسية لنفسها حدودا لتدخلها. هذا ما شدد عليه الرئيس جورج والكر بوش الذي لم يتردد سلفا في اعتبار قرارات قمة براغ على "انها الاهم منذ تأسيس الحلف عام 1949”.
"بما ان العديد من احتمالات التهديد على الدول الاعضاء في حلف شمال الاطلسي تأتي من خارج اوروبا، يجب اعداد قوات الحلف للعمل خارج اوروبا. عندما اضطر الامر لارسال قوات الى افغانستان على وجه السرعة، كانت خيارات الحلف محدودة(...). تقترح الولايات المتحدة انشاء قوة رد تابعة لحلف الاطلسي تضم قوات جوية وبرية وبحرية عالية التجهيز والجهوزية يؤمنها الحلفاء في الناتو من الاعضاء القدامى والجدد. وستكون هذه القوة جاهزة للانتشار في اسرع وقت حيث تبرز الحاجة اليها” (7).
في الواقع شكلت حرب افغانستان إذلالا حقيقيا لـ"الحلفاء الاطلسيين" اذ بعدما عرضت الدول الأعضاء خدماتها الجماعية في 12 ايلول/سبتمبر 2001 عملا بالمادة الخامسة من معاهدة 1949 حول التضامن الدفاعي بين الدول الاعضاء، لم تلقَ من واشنطن سوى تجاهل لها مجتمعة ودعوة افرادية للانضمام الى الحملة الافعانية بحسب الحاجات التي تحددها القيادة الاميركية. ازاء الاذلال المضاعف بالانحراف "الاحادي الجانب" من السيد بوش وصقور البيت الابيض، خشيت الدول الاعضاء من ان تنظر واشنطن الى الحلف كصيغة عفا عليها الزمن.
لقد استغلت ادارة بوش هذا الشعور في سعيها لانشاء قوة الرد الاطلسية (8). وهي تتناسب من حيث حجمها مع حاجة فعلية للبنتاغون خصوصا انها تقوم على مبدأ مجالات التخصص. تقوم الدول الاوروبية بمد القوات الاميركية بمساعدات محددة في المجالات التي تبرع فيها كل من هذه الدول. في هذا الاطار يمكن الاستفادة كثيرا من دول حلف فرصوفيا السابق امثال تشيكيا التي كانت متخصصة ابان الحرب الباردة بالهجمات النووية والبيولوجية او الكيميائية ويعتبر البنتاغون ان خبرتها في هذا المجال مفيدة (9).
يمكن واشنطن ان تعطي الاتحاد الاوروبي من عملته وان تقول بدورها ان قوة الرد الاطلسية مكملة لقوة التدخل السريع الاوروبية. وبالفعل فإن قمة براغ شكلت مرحلة حاسمة على طريق تحويل الاعضاء الاوروبيين في حلف شمال الاطلسي وهم الاكثرية الساحقة في الاتحاد الاوروبي الى ملحقين بالقوات المسلحة الاميركية في مشروعها للتوسع الامبراطوري العالمي.